التماثل والتعاون بين الصهيونية والنازية

يوسف حدّاد

غالت الافكار الصهيونية في التشديد على كراهية الشعوب لليهود، وفي اضطهادها لهم. وقدّم منظرو الصهيونية اطروحات غير موضوعية لهذه الكراهية، حيث جرّدوا اليهودي من الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية التي عاش فيها على مرّ العصور، «ونظرت اليه كقوة خارج التاريخ والواقع. ومن جهة أخرى، استخدمت تعابير ' الحق الالهي ' و' شعب الله المختار ' ، كجسر عبور الى ' الوطني القومي ' والعنصرية. فتصبح ' العودة الى أرض الميعاد ' مشيئة الهية؛ وكذلك خصوصية تفوّق اليهود على غيرهم من سكان العالم. وساعتئذٍ، فالرب هو الذي يقرّ بأن اليهود ' شعب ' تنقصه الارض، حتى تتفتح خصائصه القومية. وبذلك يتساوى الله مع رأس المال في المحتوى الرجعي للحركة الصهيونية»(١).

ان اليهودي، في منظور بنسكر، مكروه من كل الطبقات. فهو «ميت بالنسبة الى الاحياء، غريب بالنسبة الى السكان المحليين، متسوّل لمالكي الثروات، مستغِل ومليونير بالنسبة الى الفقراء، رجل بلا وطن بالنسبة الى الوطنيين. انه منافس مكروه بالنسبة الى جميع الطبقات»(٢). وبنسكر تجاهل العلّة للكراهية، واكتفى بسرد مظاهرها، متجاهلاً المسؤولية التي تقع على عاتق اليهود أنفسهم، والظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية التي عصفت باوروبا في اثناء ولادة هذه الكراهية.

امّا دوبنوف، فرأى ان الاضطهاد المسيحي الاوروبي لليهود ترك اثراً في طابع اليهودية لحفظ تمسّك اليهود بأهداب الدين. كتب: «فالشعب اليهودي ادرك الخطر الذي كان يهدّده، فتمسّك، بعزم، بذخائره الثمينة، وتعلّق بأعمدة ديانته التي بدت له الملجأ الوحيد، فانفصل الفكر اليهودي عن العالم الخارجي، وانصرف، كلياً، الى دراسة التلمود»(٣).

ومن نافل القول ان الحركة الصهيونية لم تقم على أسس دينية؛ بل هي وليدة ظروف اقتصادية ـ اجتماعية مرّت اوروبا بها، تخلّلتها نظرات فكرية عنصرية كغطاء للتوسّع الامبريالي، فكانت وليدة هذه الظروف. امّا الدين، بالنسبة الى الصهيونية، فلم يكن أكثر من رداء، لاستغلاله في أوساط بعض الجماعات اليهودية.

لقد رفض كارل ماركس اعتبار مشكلة اليهودي مشكلة دينية، واظهر مغالطة برونو باور عندما طرحها على هذا الصعيد. فالتحرر، في منظور ماركس، ليس مسألة مسيحي ويهودي، ومَنْ منهما يحرّر الآخر، كما زعم باور؛ بل هي مضمون التحرّر ذاته(٤).

ان المسألة اليهودية ـ في مفهوم ماركس ـ تُرَدّ الى أسس اقتصادية ـ اجتماعية لا الى منطلق فلسفي ـ لاهوتي. فالبحث عن جوهر اليهودي ليس في دينه، وانّما في موقفه الطبقي الخاص